أحمد رضا حوحو

مجموعة : صاحبة الوحي .

فتاة أحلامي

كان زملائي في الجامعة شديدي الولوع بمغازلة الحسان، تلك المغازلات البريئة في الشوارع أيام الآحاد وفي دور الصور المتحركة، حتى إذا ما أقبل المساء بظلامه الدامس انطلقنا إلى الجامعة منهوكي القوى من تعب التجوال والركض في جميع أحياء المدينة، حيث نجلس على المائدة نتناول طعام العشاء في ضوضاء وجلبة، إذ يغدو كل منا يقص مغامراته ويطري خططه ومناوراته لاقتناص الفتيات، بعدما يضيف إليها ألوانا من الخيالات يقتبسها -غالبا- من أقرب شريط سينمائي شاهده.

وكنت الوحيد بين الطلبة، الذي يصغي بإمعان إلى مغامرات زملائه دون أن يستطيع مشاركتهم في أحاديثهم وعجبهم وزهوهم، وكنت أجد في ذلك آلاما وحسرة، ولكن ما عساني أن أفعل؟.. فإن الحظ لم يسعفني ولو مرة واحدة بفتاة تفسح أمامي مجالا للكلام والفخر والزهو أمام رفقائي حتى إني كنت عندما أسأل عما لاقيته من مسرة في هذا الأحد أفر مسرعا أخفي خجلي وخمولي بعيدا عنهم، وأندب حظي العاثر.

وكانت أيام الآحاد – وهي الأيام الوحيدة التي يفسح فيها لطلبة القسم الداخلي بالخروج– تمر سراعا بدون جدوى، فكنت كل يوم ألاحق ذي من بعد، وأطيل النظر إلى هذه حتى إذا ما رشقتني بنظرة عابرة فررت مضطربا مرتجفا... فهل كنت أخشى المرأة؟.. هذا ما لازلت أجهله... والحقيقة أني لم أكن شابا جريئا مثل زملائي، وإن كنت أبدو ظريفا وشديد التأنق، ومعظم ما كنت أفعله –وهو ما كنت أسميه ملاحقة الحسان– هو أن أعرض نفسي للفتيات، كأنني بضاعة بائرة! وأقف في طريقهن منتظرا أن تعثر في إحداهن فتلتقطني وتجعل مني (دون جوان العصر) ولكن ويا للأسف طال انتظاري دون أن أجني أية فائدة، وخيل إلي أن جميع فتيات المدينة، الجميلات منهن والدميمات، أضربن عن مغازلتي وأبرمن اتفاقا بذلك.

كنت لا أفتر من التفكير في "فتاة أحلامي" وكثيرا ما يمر الدرس وأنا غارق في بحور الأحلام، شارد الفكر أبحث عنها في عالم الخيال الفسيح فلا أجدها، ولا أهتدي إليها.

وحصل لي مرارا –وأنا على المائدة – أن أستغرق في تفكير عميق وأغدو أضع الخطط والمناورات لاقتناصها حتى إذا ما استقر رأيي على الخطة الناجعة وارتحت إليها وأزمعت تنفيذها يوم الأحد المقبل، وأقبلت على الطعام بسرور وشهية، لم أجد في الصحن شيئا إذ اقتسمه زملائي والتهموه وغدوا يطرون قدرتي على التعمق في التفكير ويخلعون علي ألقاب الفيلسوف بسخاء، ويؤكدون أن الفلاسفة يتغذون من ثمرة أفكارهم... فأقوم خاوي البطن وأصبر على مضض إلى أن تحين وجبة العشاء.. ورغم هذه التضحيات العظيمة التي كنت أبذلها في سبيل خططي، لم أقو ولو مرة واحدة على تنفيذ إحداها، فقد كانت تخونني الشجاعة وتنقصني الجرأة دائما وأبدا.

كانت تشاركنا في حياتنا الداخلية في الجامعة آنسة عانس تدعى "بولوني" تخطت عتبة الشباب منذ أمد بعيد، ومسحت السنون من نضرتها فلم يبق منها

إلا أثر ضئيل، وكانت هذه الفتاة العجوز تقوم بحراسة الباب وقرع جرس التوقيت وتعرض في أوقات فراغها أصنافا من الحلوى الرخيصة و(الشوكلاته) حيث تضعها على نافذتها المطلة على أقسام الجامعة، فنلتف حولها أوقات الفسحة نبتاع من حلوياتها ونأخذ عنها دروسا في اقتناص الحبيبات وكيفية المجاملات، والتحدث إليهن وكانت الآنسة "بولوني" أشد الناس سخرية مني ومن خجلي وخمولي وكثيرا ما كنت أتملقها فأشتري منها قطعة حلوى بأضعاف ثمنها لأنجو من لسانها اللاذع وسخريتها المرة.

قصدت ذات مساء إحدى دور الصور المتحركة، وأذكر تماما أني قصدتها للتسلية، ولم أقصدها للبحث عن (فتاة أحلامي) إذ بلغ بي يأسي يومئذ أشده. وكان الإخفاق حليفي في جميع محاولاتي الفاشلة. وما كدت أجلس على المقعد الذي يحمل رقم بطاقتي حتى أبصرت بفتاة تتقدم برشاقة وتحتل المقعد المجاور وبدت لي –في غسق الغرفة المطفأة الأنوار– رشيقة القد ولكن لم أتمكن من رؤية وجهها حيث منعني ظلام الغرفة وقبعة اللباد التي كانت تغطي رأسها من التمعن في قسماتها ولكنني تخيلتها جميلة ظريفة، أو رضيت بها على علاتها، وهل يجوز لمثلي من الخاملين الخافقين أن يكون شديد التعصب في الاختيار مغاليا في الشروط. وما كدت أقنع نفسي بأن هذه فتاة أحلامي حتى أخذ قلبي يخفق بشدة، وكدت أيأس عندما تبينت هندامها، إذ كنت أعتقد أن الفتاة التي لا تغالي في التجمل هي أبعد النساء عن المغازلات ومبادلة الحب.

وبدأت الصور تتحرك على الشاشة. وكانت تمثل رواية غرامية وما لبثت أن استهوتني هذه الرواية حتى نسيت نفسي ونسيت فتاتي وما يجب علي من القيام به من الأدوار الأولى التي تعلمتها من "العانس بولوني" حتى أني لم أشعر حينما وضعت يدي فوق يدها على المتكأ المشترك بين مقعدينا المتجاورين ولم أنتبه إلا حينما أحسست بضغط خفيف على يدي، فانتبهت حينذاك وسحبت يدي واعتذرت بكلمات متلعثمة، وما كان من هذه إلا أن أمسكت بيدي بقوة

ووضعتها على المتكأ ووضعت يدها فوق يدي وهمست في أذني:

– لا تكن سخيفا، فلا حاجة إلى هذه الاعتذارات المتكلفة، فإن المتكأ مشترك بيننا لك الحق في استعماله...

ولم أستطع أن أنبس بكلمة، وأخذ بدني يرتجف، وقلبي يخفق بشدة حتى خيل إلي أن جميع من بالقاعة يسمعون دقاته الشديدة واضطربت كثيرا ولكنني كنت سعيدا بهذا الانتصار على بنات حواء اللواتي طالما أشقينني، وداخلني شيء من الزهو والغرور، وأخذت أفكر في طريقة تعذيب هذه العشيقة المدلهة بحبي، وتخيلتها وهي راكعة عند قدمي تستعطفني وتطلب رحمتي.

ثم قطعت علي فتاتي حبل أفكاري حيث أخذت تهمس في أذني والظلام الحالك يكتنفنا، وتستطلع رأيي في روعة الرواية وحاولت أن أتكلم، فلم أقو على الكلام وراجعت نفسي وإذا بي أجدها لا تزال مضطربة وجلة...

وأخذت أقوي نفسي وأستنجد بعزمها، وأحاول إقناعها بالغلبة والانتصار، ولكن بدون جدوى، فما كانت تزيد إلا ارتجافا وخذلانا.

وأخيرا انتهت الرواية وأشعلت الأنوار ولم يستقر رأيي بعد على شيء وحانت مني التفاتة وإذا بي أجدها قد ابتعدت واختفت وسط الجماهير المزدحمة أمام مخرج الدار، فلحقت بها مسرعا وأنا ألعن نفسي وأنحى عليها باللائمة. وبعد جهد اهتديت إليها ما بين الجماهير المتناثرة في الشارع، وما كادت تبصرني من بعد حتى ابتدرتني قائلة:

– إن طريقنا واحد، انتظرني قليلا سألحق بك فورا..

وغابت، وحثتني نفسي بالفرار ولكني خذلتها هذه المرة، وانتظرت وبعد دقائق رأيتها قادمة تحمل طردا كبيرا لاحظت أنها تجد عناء شديدا في حمله، ولم أر قبل ذلك فتاة رشيقة تحمل مثل هذه الطرود الضخمة الثقيلة. وما كان

مني إلا أن تقدمت إليها وحاولت حمله فلم تمانع وسرنا جنبا لجنب فكانت تتقدمني دائما ببضع خطوات فلم أبصر وجهها... قالت تحدثني:

–أذاهب إلى الجامعة؟

قلت:

– نعم إن موعدي قد حان.

قالت:

– وأنا كذلك.

ففهمت أنها تسكن بالحي المجاور للجامعة، وقلت لها:

–سأوصلك إلى منزلك.

قالت:

–طبعا سنصل سويا...

ولم أفهم ما تقصده بهذه العبارة.

وأخيرا وصلنا الجامعة وأنا لاهث متعب فقد وجدت مشقة وعناء كبيرين في حمل هذا العبء الثقيل وكنت أحاول مسك أنفاسي المتصاعدة خشية أن تنتبه فتاتي إلى تعبي فتوصمني بالضعف.

كنت أنتظر أن تنحرف الفتاة ذات اليمين أو ذات اليسار في طريقها إلى مسكنها ولكني تعجبت كل العجب حينما رأيتها تصعد درجات الجامعة بخفة متكلفة وتدخل، وما كدت ألحق بها حتى وجدتها فتحت باب المسكن القائم على يسار بوابة الجامعة الحديدية الضخمة، وتقدمت نحوي فأخذت مني الطرد وقذفت به داخل المسكن واختفت وراءه وهي تقول:

– سأمنحك غدا قطعة شوكلاطة مقابل حملك للطرد...

وهنا فقط انتبهت من غفوتي أو قل إذا شئت من غفلتي وعلمت أن قنيصتي، أو عشيقتي في هذه الليلة لم تكن سوى العانس "بولوني" قارعة جرس الجامعة.